



في روايته الأخيرة "سُمُّ في الهواء" (دار الساقى - بيروت 2021) يعود الروائي الراحل جَبور الدوبهي إلى الحياة اللبنانية وبيئتها جرباً على عادته في كافة أعماله الأدبية، لكنّه هذه المرّة يلجُ في عموميّات شاملة وواضحة حول الحقبة التاريخيّة للبنان الحديث، بحيث أنّ الرواية عبارة عن تسريد تاريخيّ لواقع الشعب اللبنانيّ ولبنان ما بعد استقلاله، أي تحديداً ذلك الواقع المتنقّل بين مختلف الحقبات الأليمة والمفجعة للبنان والتي طاولت مختلف شرائحه ومكوّناته.

يلجأ الدوبهي بدايةً إلى عنوانٍ لمّاح "سُمُّ في الهواء"، والذي يقود بدوره إلى عالم لبنان خلال هذه الفترات، وهو العالم المشحون الذي عاشه اللبنانيّ طيلة عقود حياة الدولة اللبنانيّة، أي الأحداث المتفرّقة وخلفياتها المشحونة التي رافقت اللبنانيّ وطغت عليها العذابات والآلام، لكنّ صاحب "مطر حزيران" ركّز في النص على الخلفيات المشحونة أكثر من تركيزه على الأحداث الأليمة التي لم يوردها سوى على هيئة Foreground لهذه الخلفيات المشحونة، وهو ما يمكن تلخيصه بعبارة: لم يسقط قتلى لكن كان هناك سُمُّ في الهواء، وهي عبارة لا شكُّ أنّها "لبيسة"، أي أنها قابلة للانطباق على كافة الأزمنة اللبنانيّة المشحونة بالكراهية والعداوات بمختلف ألوانها.

شخصيّات مجهولة الهوية

تتمحور الرواية حول شخصيّة "الراوي" الذي شاء الدوبهي أن يبقيه مجهول الإسم والهويّة، غير أنّه أعطاه كامل التفاصيل والملاحم اللازمة لشخصيّته التي عايشته كافة أحداث لبنان الحديث بل وكانت مشاركة في بعضها (أحداث 58، عام النكسة، الحرب الأهلية، بناء ما بعد الحرب، اغتيال رئيس الوزراء، انهيار العملة الوطنية وأحداث 17 تشرين، انفجار 4 آب في مرفأ بيروت...)، وخلال هذه المراحل المختلفة تبرز التقلّبات الحياتيّة والمسار المشؤوم لحياته الشخصيّة التي تماهت بصورة نسبيّة معها دون أن تتقمّصها. لكن يشأ الروائي اللبناني أن يزجّ بطله هنا في خضمّ هذه الأحداث بقدر ما أراد بهيئة الهارب منها، إذ حاول معاشتها والهرب من أهوالها عبر تصرّفاتة المختلفة (تخيّله لمعارك وهميّة في مسقط رأسه، علاقته بالفتاة صاحبة الشعر القصير، امتهانه التدريس وعلاقاته النسائية العابرة، انضمامه إلى منظّمة التروتسكيين العرب وتورّطه معهم، زواجه من زميلته معلّمة الفلسفة ودخوله السجن لمحاولة قتلها، عزله الأبدية في إحدى البلدات...) كلّ ذلك مسائرٌ حكاويّ مرتبط مباشرةً بمسيرة التحوّلات التي شهدتها



وكما هي حالة شخصيّة "الراوي" الرئيسيّة نجد حال باقي الشخصيات الأخرى، جميعها مجهولة الأسماء والهويّات لكنّها واضحة التفاصيل والملامح، بحيث يستغرق الكاتب في تمرير حكاياتهم التي كان لها تأثيرها على مسار الرواية الطويل (عمّته التي قضت حياتها مرتحلة مع أزواجها وورثته لهم، والده الذي يعيش مغامرات عاطفيّة تؤدّي إلى إحباط والدته قبل وفاتها، خالته التي تغادر رفقة عشيقها إلى أفريقيا وتعود بعد وفاته برفقة طفل، ابن خالته الزنجي الذي يشكك بأصله ويعيش حالة تمييز عنصري ويخطف في ياموسوكرو، زوجته معلّمة الفلسفة التي لا يتفق معها وتحطم مجسم بلده، جاره في فندق "بيريت سور مير" الذي يورثه بندقية فئّاصة عقب انتحاره، صديقه المشار شهيد التروتسكيين العرب...) جميعها شخصيات تعمد جبور إخفاء هويّتها، ولربما يعود ذلك إلى محاولته التجريبيّة لإسقاط حالة الفرد اللبناني على كلّ شخصيّة من هؤلاء.

ما يلاحظ في سياق السرد الروائيّ هو الطغيان المطلق لشخصيّة الراوي على كافّة مفاصل الرواية، وهو ما يُقابل بيهوت حضور باقي الشخصيات، حتى أن أكثرها حضوراً وتواجداً لا تحتاج سوى إلى بضع حلقات، متواصلة أو متفرّقة، لتضع بصمتها على حياة الراوي وتختفي، وبالتالي فإنّ هذا الحضور الطاغي لشخصيّة الراوي يحيل النص إلى أسلوب الرواية السيرية، سيرة كلّ لبنانيّ في نظر الدوبهي حسبما يمكن الاعتقاد.

وأزمة وأمكنة مجهولة أيضاً

على الرغم من عدم إعطاء الرواية إشارة تاريخيّة زمنيّة محدّدة في سياق نصّها السردي، غير أنّ أحداث الرواية وتغيّراتها الزمنيّة توحى بأنّها بدأت مع تصاعد الأزمة السياسيّة في لبنان عام 1958، والتي كانت بمثابة "أول الرقص" لكافة الأزمات والنزاعات اللبنانيّة التي تلتها ولم تورث البلاد سوى الخراب، لتصل خاتمتها مع انفجار 4 آب الذي يعتبر واحداً وأسوأ كوارث الانفجارات في التاريخ. وبالتالي كانت هذه الحقبة من التاريخ اللبناني بمثابة بيئة خصبة لإبراز تحوّلات الشخصيّة اللبنانية وتغيّراتها من خلال شخصيّة الراوي أو من خلال كافة الشخصيات الثانويّة.



البورتريه الذاتي اللبناني

إزاء هذا الحضور المجهول نسبياً للشخصيات والزمان والمكان، نجدُ تقنيّةً جديدةً وفريدةً على عالم جيور الدويهي الروائي، وهي تقنيّة تكامل هذه العناصر وتناغمها لتشكيل الثالوث السردّي، فجور عودنا على أن نجد أحد أطراف هذا الثالوث طاعياً في كلّ عملٍ من أعماله، فعلى سبيل المثال يطغى المكان في "عين وردة" و "حي الأمريكان"، ويطغى الزمان في "مطر حزيران" و "اعتدال الخريف"، كما تطغى الشخصية في "ملك الهند" و "شريد المنازل". غير أنّ "سُمُّ في الهواء" تتخذ تشابكاً ثلاثياً بين هذه العناصر لدرجة أنّ أيّ خفوتٍ خفيفٍ في حضور أحدها أو طغيان حضور آخر سيؤدّي إلى تفكك البنية الروائية وثيمتها، ولعلّ هذه التقنيّة المبتعة مردها أيضاً اعتماد الروائي على الأسلوب السيري في الرواية.

أمّا على أسلوب السيرة الذي اعتمده جور، فنلاحظ أنّ هذه السيرة منكهة بتقنيّة "البورتريه الذاتي" أو "الصورة الذاتية"، وهي إحدى التقنيّات التي اعتمدها وليم فوكنر في العديد من أعماله الأدبية (الصخب والعنف، الملاذ، البعوض...). هذه التقنيّة تتعرّف، وفقاً للناقد والباحث الفرنسي ميشيل غريسيه، بأنّها إسقاط للخصائص الذاتية للكاتب على شخصيّة واحدةٍ أو عدّة شخصيات في الرواية، وليس بالضرورة أن تندرج ضمن السيرة الذاتية لأنّها تنساق مع الخيال أكثر من الواقع. بيد أنّ جور لم يكتف بإسقاط بعض ملامح شخصيته على شخصيّة الراوي، بل أضاف إليها



إسقاطه لملاح وخصائص "الشخصية اللبنانية" على مختلف الشخصيات الواردة في الرواية، لتصبح كلّ واحدةٍ منها تمثّل "البورتريه اللبناني" بمختلف حالاته.

فقاعات حكاية

إنّ اعتماد صاحب "الموت بين الأهل نعاس" في هذا العمل على الأسلوب السيّري الروائي كان سبباً في عدم وضوح الحبكة الأساسية للرواية، بل جاءت على شكل حلقاتٍ محكمة، ولعلّ التسمية الأدق بالنسبة لها هي "فقاعات حكاية". هذه الفقاعات الحكائيّة أتت كما لو أنّ الدويهي يكتب نصوص حلقات الرواية مثلما ينفخ فقاعات الصابون، بحيث تتجلى إحدى هذه الدوائر الحكائيّة وتتضح أمام القارئ لتقول ما تريد قوله قبل أن تختفي تاركة المساحة السردية لغيرها. هذه الفقاعات الحكائيّة تتجمّع مع بعضها مشكّلة الفصل الروائي، وبدورها تتجمّع فصول الرواية العشرة مشكّلة مسار النص، بيد أنّ الروائي لم يترك هذه الحلقات - الفقاعات وكأنّ كلّ واحدةٍ منها بمعزلٍ عن الأخرى، بل لجأ لتصوير تسلسل تجلياتها بطريقة سينمائيّة متجانسة، أي كلّ واحدة تكمل ما قبلها وتمهّد لما بعدها ولو ضمن حدود ضيقة، وما ساعد على ذلك هو محور الرواية حول شخصيّة "الراوي" التي ترتبط بها كافّة حكايا النص.

لعل هذا السُمُّ في الهواء الذي تركه جبور قبل رحيله هو آخر فصول الحياة اللبنانية التي دأب على سردها طيلة ثلاثين عاماً، وهي هنا أشبه باختزالٍ لكافة تفاصيلها الموجودة بمختلف رواياته وبمثابة حالة احتضارٍ قاسية لوجودها، وبالتالي فإنّ رحيل الراوي في ختام الرواية (والتي توقّي جبور الدويهي بعد صدورها بنحو شهرين) بمثابة بدء اختفاء كافة خصائص هذه الحياة التي نخر السُمُّ جسدها وأجواءها وأمست اليوم تصارع على إبقاء هويّتها.

الكاتب: [بهاء إبعالي](#)